أسلوب الاستفهام في سورة الطور

د. محمد أحمد مبارك دقالي

خطوات البحث:

تركز هذه الدراسة على نوع من أنواع الاستفهام وهو الاستفهام المجازي، ولا يعتمد هذا اللون على المنهج العقلي المجرد ؛ بل يغلب عليه إثارة العواطف وشجن الوجدان فهو أسلوب وجداني بالدرجة الأولى.

وهذا النوع من الاستفهام له حضور واسع في القرآن الكريم، فالله عَزَّ وجَلَّ لا يستفهم خلقه عن شيء، وإنما يستفهمهم ليقررهم ويذكرهم أنهم قد علموا ذلك الشيء وهذا أسلوب بديع انفرد به الخطاب القرآني، وهو يغاير كلام البشر، وقد خاطب القرآن الكريم عقولاً ورجالاً برعوا في أفانين الكلام شعراً ونثراً. وقد ورد الاستفهام المجازي كثيراً في كلام العرب.

وقد تنوّع البحث في باب الاستفهام القرآني، فتناوله النحويون من خلال ذكر أدوات الاستفهام ودلالاتها والتمييز بينها مع الإشارة الخفيفة إلى بعض معانيها البلاغية.

وتناوله المفسرون للقرآن الكريم من خلال ذكر المعاني البلاغية لأدوات الاستفهام وبعض أسرارها وعلاقتها بالسياق أحياناً.

وبحث فيه المؤلفون في علوم القرآن وكانت لهم فيه اتجاهات معينة.

ـ فكرة البحث

إن هذه الظاهرة الأسلوبية في سورة الطور تقتضي أن يتجاوز البحث الوقوف عند المعنى اللغوي الحقيقي الإبلاغي لأسلوب الاستفهام إلى المعاني المجازية، فالاستفهام يخرج في الخطاب القرآني عن أصل وضعه ليؤدي وظائف أخرى تفهم من السياق، فمن ذلك: التوبيخ والتقريع والسخرية والإنكار وغيرها، إلى جانب الكشف عن علاقة أسلوب الاستفهام بغيره من الأساليب اللغوية والبيانية من أمر ونهي ونداء ولغة وتركيب.

ولا تقتصر هذه الدراسة على الأغراض البلاغية لأسلوب الاستفهام المجازي في هذه السورة، وإنما سيتم وفق وروده في السورة، نظراً للعلاقة الوثيقة بين مجرد هذا الأسلوب وتدرج المضمون الفكري والحدث، وارتباط المعنى بتسلسل الأفكار وترتيبها في السورة، لكونه يشكل نسيجاً لغوياً متلاحماً، فالأفكار في العمل الفني تمضي مترابطة متشابكة في إيقاع فني متواصل، يرتفع وينخفض وفق الإيقاع الفني الذي يعرفه الخطاب القرآني المبدع.

ـ منهجية البحث

ستعتمد الدراسة على المنهج الاستقرائي التحليلي الذي يقوم على جمع الآيات القرآنية المتضمنة لأسلوب الاستفهام في السورة، ومن ثَمَّ تحليل هذا الأسلوب للوصول إلى الخصائص التعبيرية للخطاب القرآني من خلال استخدام أسلوب التحليل الفني الذي يركز على بناء الصور التعبيرية وتراكيبها.

ـ المقدمة:

أسلوب الاستفهام من الأساليب الإنشائية الطلبية والإنشاء الطلبي هو ما يستلزم مطلوباً ليس حاصلاً وقت الطلب(١)، وهو ضمن تسعة أساليب طلبية، كالنداء، والتمني، والدعاء، والأمر، والنهي وغيرها(٢).

والاستفهام في اللغة مصدر الفعل (استفهم)، و(استفهمه): سأله أن يفهمه، وقد استفهمني الشيء فأفهمتُه وفهَّمته تفهيماً(٣). فهو بُنية طلبية تقدم صيغته (استفعال) مؤثراً على دلالته الوضعية في طلب الفهم بأدوات مخصوصة(٤). ولكل أداة من أدواته وظيفة خاصة فصَّلها البلاغيون ضمن علم المعاني أحد علوم البلاغة الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) (٥).

ومن البلاغيين من سَوّى بين الاستفهام والاستخبار فقال:" الاستخبار: طلب خبر ما ليس عند المستخبر وهو الاستفهام"(٦). وهذه التسوية فتحت - بدورها- آفاقا رحبة أمام البلاغيين في تقسيم الاستفهام إلى حقيقي ومجازي.

فطلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل بأداة خاصة يسمى: استفهاماً حقيقياً، ولكن حين تخرج أدوات الاستفهام عن معانيها التي وضعت لها إلى معانٍ أخرى على سبيل المجاز تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال يسمى: استفهاماً مجازياً، وهو مجال بحثنا هذا.

فالغرض من هذا النوع من الاستفهام هو غرض بلاغي لا يراد منه حقيقة الاستفهام وإنما يراد منه الوصول إلى هدف معين، كأن يكون للتوبيخ أو التقرير أو الإنكار أو ما شابه ذلك، وهذا كثير في كلام العرب.

ووضّح ابن فارس في كتابه: الصاحبي في فقه اللغة هذا الجانب في قوله: " إن الحقيقة من قولنا: حق الشيء: إذا وجب، واشتقاقه من الشيء المحقق وهو المحكم، فالحقيقة: الكلام الموضوع موضعه الذي ليس باستعارة ولا تمثيل ولا تقديم ولا تأخير، وهذا أكثر الكلام.... وأما (المجاز) فمأخوذ من (جاز) يجوز إذا استنَّ ماضياً تقول (جاز بنا فلان، وجاز علينا فارس))...فهذا تأويل من قولنا:(مجاز) أي: إن الكلام الحقيقي يمضي لسننه لا يعترض عليه وقد يكون غيره يجوز جوازه لقربه منه إلا أن فيه من تشبيه واستعارة وكف ما ليس في الأول... فمن سنن العرب مخالفة ظاهر اللفظ "(٧).

وما يهمنا في هذا المقام هو الاستفهام المجازي، هذا " اللون من ألوان التعبير الذي ينقل أدق المشاعر وأعمق الأحاسيس، ويبث أخفى الخواطر والهواجس باعثاً في نفس المتلقي شتى الإيحاءات المتوهجة المتداخلة... وهو أسلوب لا يعتمد المنهج العقلي المجرد، بل يغلب عليه إثارة العواطف وشجن الوجدان، فهو أسلوب وجداني بالدرجة الأولى..."(٨).

وهذا النوع من الاستفهام له حضور واسع في القرآن الكريم، فالله عَزَّ وجَلَّ لا يستفهم خلقه عن شيء، وإنما يستفهمهم ليقررهم ويذكرهم أنهم قد علموا ذلك الشيء وهذا أسلوب بديع انفرد به الخطاب القرآني، وهو يغاير كلام البشر، وقد خاطب القرآن الكريم عقولاً ورجالاً برعوا في أفانين الكلام شعراً ونثراً، " فإدراك المقصود من الاستفهام ليس له حد قاطع وإنما يستطيع الذوق السليم والحس المرهف معرفة الغاية منه، فالسياق وحده هو الذي يضفي على الأداة شعاعاً تتلون به وتتزيا بزيه "(٩)، وقد ورد الاستفهام المجازي كثيراً في كلام العرب.

وحيث أن الاستفهام البلاغي أو المجازي هو الغالب وروده في القرآن الكريم حيث تجاوز المائتين ألفاً، نجد في المقابل قد قَلَّ استخدام الاستفهام الحقيقي بما لا يجاوز عشرين أسلوباً، وكلها أساليب لم تصدر عنه عَزَّ وجَلّ، بل جاءت على ألسنة الشخصيات الأخرى(١٠)، كما في قوله تعالى على لسان فرعون (قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى)(١١) استفهام عن التعاظم والطغيان، فالاستفهام الحقيقي يستحيل أن يصدر من جهة الحق سبحانه، وإذا كان من جهته جَلّ وعَلاَ فيسمى استخباراً، إذ معنى استخبره: سأله عن الخبر وطلب أن يخبره، " كما أن الاستخبار كاصطلاح علمي لم يشتهر عند المتأخرين. ولذا كان الرأي على أن الاستفهام من جهته تعالى لا يراد به حقيقته بل معانٍ بلاغية بحسب المقام " (١٢).

ويسوي (ابن فارس) بين الاستفهام والاستخبار وأن الاستفهام يقصد به الاستخبار حيث يقول: " ومن دقيق باب الاستفهام أن يوضع في الشرط وهو في الحقيقة للجزاء، وذلك مثل قول القائل: إن أكرمتك تكرمني، والمعنى: أتكرمني إن أكرمتك؟، قال جلّ ثناؤه:(أفإن مِتَّ فهم الخالدون)، تأويل الكلام: (أفهم الخالدون إن مت؟) (١٣).

كما تناوله المفسرون للقرآن الكريم من خلال ذكر المعاني البلاغية لأدوات الاستفهام وبعض أسرارها وعلاقتها بالسياق أحياناً.

وبحث فيه المؤلفون في علوم القرآن وكانت لهم اتجاهات معينة، فمثلاً قسّم الزركشي الاستفهام إلى إنكاري وتقريري، وفصّل الأمر في ذلك (١٤).

وعدّد السيوطي معاني الاستفهام تباعاً دون تحليل وأوصلها إلى اثنين وثلاثين نوعاً، ثم توالت بعدهم مؤلفات السكاكي وعبد القاهر الجرجاني الذين بحثوا في الدلالات الحقيقية للأدوات، والمعاني البلاغية المتولدة عنها بمعونة القرائن(١٥).

هذا الفيض من الأبحاث يدل على إعجاز كلامه جَلّ وعلا، " لا يعالج عالم الإنسان الداخلي والخارجي أو الأكوان المحيطة به والتحام الإنسان معها فحسب ؛ بل يمدُّ جناحيه ليستوعب الزمان كله بأقسامه وأحداثه ؛ بل وما قبل الزمان وما بعده من نشأة الخلق ومشاهد البعث"(١٦)، لتكون حجة الله على البشر آكدة، (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)(١٧)، " خاصةً إذا علمنا أن أسلوب القرآن ليس

موجهاً إلى شخص بعينه ولا إلى جيل بعينه ؛ بل خوطبت بالقرآن أجيالٌ وأجيال، إلى أن يرثَ اللّه الأرضَ ومن عليها، وكل جيل يفهم منها ما يناسب تفكيره ويلائم ذوقه ويوائم معارفه، ولو اختلت فيه لفظة أو حذفت منه عبارة أو أضيفت إليه جملة لم يصلح لمخاطبة الناس جميعاً وهذا لاشك إعجاز فوق إعجاز " (١٨).

من هذا المنطلق سوف نحاول التركيز على أسلوب الاستفهام المجازي في إحدى سور القرآن الكريم، وقد وقع الاختيار على سورة (الطور)، لكثافة حضور الاستفهام الإنكاري في آياتها، فقد ورد فيها هذا الأسلوب خمس عشرة مرة، في تدرج رائع وأسلوب فني بديع، وخطاب تحدي مبني على برهان اليقين.

ـ أسلوب الاستفهام في سورة الطور:

سورة الطور من السور المكية، وهي الخامسة والسبعون في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة نوح وقبل سورة المؤمنين(١٩).

ولأهمية الموضوع التي تتناوله هذه السورة الكريمة فقد بدأت بالقسم بخمسة أمور: (الطور، والكتاب المسطور، والبيت المعمور، والسقف المرفوع، والبحر المسجور)، وهو قسم بوقوع يوم القيامة للمشركين المكذبين بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم وما جاد به من آيات بيّنات تبين إثبات حقيقة البعث بعد الموت والجزاء الذي سيلقاه المحسن والمسيء، ووعد بالمقابل المؤمنين المتقين بجنة النعيم.

فبعد هذه المقدمات الإيمانية وما فيها من قوارع التحدي في السورة تأتي آيات التحدي البرهاني للمشركين والمساءلة الشديدة لهم ومواجهتهم مع الحقيقة اليقينية التي يرونها يوم القيامة، فخطاب التحدي قد ترقّى إلى أعلى مراتبه وأقوى براهينه وكأن هذه الآيات المتتابعة واحدة خلف الأخرى أشبه بضربات مَعولٍ قوية تفلق عقول هؤلاء الكفرة الجاحدين كما تفلق الصخر، لأنهم منكرون لحقيقة قدرة الله وجبروته وسطوته، فتكرار (أَمْ) في السورة خمسة عشر مرة متوالية دون أن يفصل بينهما فاصل تؤكد قوة الهجوم وقرع التحدي لهؤلاء المنكرون، وتتوالى آيات التحدي والإعجاز بلغة المخاطبين أنفسهم لتكون حجة الله جلّ وعلا عليهم آكدة، ولئلا يقولوا: إنما عجزنا عن الإتيان بمثله لأنه بغير لغتنا وبغير السنن التي نسّنَنُّها، لا ؛ بل أنزله جلّ وعلا بالحروف التي يعرفونها وبالسنن التي يسلكونها في أشعارهم ومخاطباتهم ليكون عجزهم عن الإتيان بمثله أظهر وأشهر، كما جعل تعالى القرآن أحد دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم أعلمهم أن لا سبيل إلى معارضته وقد حسم ذلك الأمر في غير ما آية.

ورد أسلوب الاستفهام في هذه السورة في سبعة عشر موضعاً وقد يتكرر في الآية الواحدة وذلك على الترتيب التالي:

- قال تعالى: (أ فسحر هذا أم أنتم لا تبصرون) (٢٠).
- قال تعالى: (أم يقولون شاعرٌ نتربص به ريب المنون) (٢١).
- قال تعالى: (أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قومٌ طاغون) (٢٢).
- قال تعالى: (أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون) (٢٣).
- قال تعالى: (أم خُلِقُوا من غير شيء أم هم الخالقون) (٢٤).
- قال تعالى: (أم خَلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون) (٢٥).
- قال تعالى: (أم عندهم خزائن ربّك أم هم المسيطرون) (٢٦).
- قال تعالى: (أم لهم سُلَّمٌ يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين) (٢٧).
- قال تعالى: (أم له البنات ولكم البنون) (٢٨).
- قال تعالى: (أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون) (٢٩).
- قال تعالى: (أم عندهم الغيب فهم يكتبون) (٣٠).
- قال تعالى: (أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون) (٣١).
- قال تعالى: (أم لهم إلهٌ غير الله سبحان الله عمَّا يشركون) (٣٢).

فالناظر في هذه الآيات الكريمة يلاحظ أن أسلوب الاستفهام اعتمد على دلالة (أَمْ) المتكررة في جُلّ الآيات.

و(أمْ) عند النحويين حرف عطف وهي من عطف النسق، وهو أن يتوسط بين التابع ومتبوعه أحد أحرف العطف التسعة(٣٣)، ستة منها تفيد المشاركة بين المعطوف والمعطوف عليه في الحكم والإعراب معاً وهي: الواو، والفاء، وثُمَّ، وحَتَّى، و أو، وأَمْ، والثلاثة الباقية تعطي المعطوف حركة المعطوف عليه دون المشاركة في الحكم وهي: بل، ولا، ولكن (٣٤).

و(أمْ) على قسمين: متصلة ومنقطعة (٣٥).

فالمتصلة مثل: أأنت ناجح أم أخوك، وقوله

تعالى: (سواءٌ علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين)(٣٦). ويسبقها همزة استفهام أو همزة تسوية كما في المثالين السابقين، ويشترك ما قبلها وما بعدها في الحكم وفي الحركة ولا يستغني بأحدهما عن الآخر (٣٧).

والمنقطعة معناها: الإضراب مثل: بل، فتقطع الكلام الأول لتستأنف كلاماً جديداً مثل قولك: هَلاَّ زرت صديقك أم أنت معتزل؟، أي: بل أنت معتزل، فإذا كان ما بعدها مستنكراً أضافت إلى معنى الإضراب معنى الاستفهام الإنكاري مثل قوله تعالى: (أم خَلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون) (٣٨)، يعني: بل أهُمّ خلقوا السماوات والأرض؟.

من هنا سوف نحاول تتبع دلالة (أمْ) على الاستفهام المجازي الذي يُشكِّلُ مع غيره من الأساليب الإنشائية والخبرية نسيجاً مُحكماً في شبكة من العلاقات الداخلية ليؤدي إلى كشف المعنى وإجلاء الدلالة عليه وإبراز القيمة الجمالية لتحقيق الإقناع والتأثير في مشاعر المتلقي، وتضافر الجملة الاستفهامية مع الأساليب الفنية الأخرى مثل: بنية الحوار والحذف، والتقديم والتأخير والمجاز المرسل، بغية الكشف عن المعاني الموحية والمؤثرة التي زاد الأسلوب ثراء وخصوبة وقدرة على التأثير في نفوس المتلقين بقصد تحقيق المشاركة الوجدانية.

التحليل الأسلوبي:

- قال تعالى: (أ فسحرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون)(٣٩)، فالهمزة في قوله جلّ وعلا (أفسحرٌ هذا...) للاستفهام الإنكاري، ومن الناحية الإعرابية: الفاء عاطفة على محذوف تقديره: كنتم تقولون للوحي هذا سِحْرٌ، أ فسحْرٌ هذا؟، يريد: هذا المصداق أيضاً سحر وقد أفادت الفاء هذا المعنى (٤٠).

وفي الآية تنبيه على ضلال المشركين في الدنيا بقوله: (أفَسَحْرٌ هَذَا)، " إذ كانوا يسمعون الإنذار يوم البعث والجزاء، فيقولون: هذا سحر...، فالمناسبة بين ما في صلة الموصول من معنى التوقيف على خطئهم وبين التهكم عليهما كانوا يقولونه، دخلت فاء التفريع وهو من جملة ما يقال لهم المحكي بالقول المقدر"(٤١).

فالاستفهام إنكاري تهكمي، وقد أثار التقديم والتأخير في الآية انتباه المتلقي، فالتنبيه أتى لتأكيد ضلال هؤلاء الكفرة، فقوله:(سَحْرٌ) خبر مقدم، و(هذا) مبتدأ مؤخر، وقد عمَّق التقديم والتأخير من دلالة أسلوب الاستفهام المتمثلة في التوبيخ والتهكم والإنكار(٤٢).

(أم أنتم لا تبصرون)، فـ(أمْ) منقطعة والاستفهام إنكاري، الغرض منه: التوبيخ والتهكم والتقدير: بل أأنتم تبصرون، ويجوز أن تكون متصلة أي: ليس شيء منها ثابتاً، فثبت أنكم قد بعثتم وأن الذي ترونه حق، فهو تقريع شديد وتهكم فضيع.

ومعنى (لا تبصرون): لا تبصرون المرئيات كما هي " في الواقع... وجيء بالمسند إليه مخبراً عنه بخبر فعلي منفي لإفادة تقويّ الحكم، فلذلك لم يقل: أم لا تبصرون ؛ لأنه لا يفيد تقوياً، ولا: أم لا تبصرون أنتم،لأن مجيء الضمير المنفصل بعد الضمير المتصل يفيد تقرير المسند إليه المحكوم عليه بخلاف تقديم المسند إليه فإنه يفيد تأكيد الحكم وتقويته وهو أشد توكيداً، وكل ذلك في طريقة التهكم..." (٤٣).

- قال تعالى (أم يقولون شاعرٌ نتربص به رَيبَ المَنون)(٤٤).

(أمْ) في الآية منقطعة، والجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً(٤٥)، وهي للإضراب الانتقالي، وتدل على الاستفهام الإنكاري، فهي منتقلة عن قوله تعالى: (فما أنت بنعمة ربك بكاهنٍ ولا مجنون)،وهو انتقال من مقالة إلى مقالة أخرى وهي قولهم: هو شاعر نتربص به ريب المنون، ومن هنا تأتي القيمة الجمالية في الخطاب القرآني، فعدل عن الإتيان بحرف بل مع أنه أشهر في الإضراب الانتقالي لقصد تضمن (أم) للاستفهام، والمعنى: بل يقولون شاعر، والاستفهام المقرر إنكاري كما ذكرنا، ومناسبة هذا الانتقال أن النبي صلى الله عليه وسلم أُمِرَ بالدوام على التذكير يشير إلى مقالاتهم التي يردون بها دعوته، فلما أُشير إلى بعضها بقوله تعالى: (فما أنت بنعمة ربك بكاهنٍ ولا مجنون)، انتقل إلى إبطال صفة أخرى يثلثون بها الصفتين المذكورتين قبلها وهي صفة الشاعر(٤٦).

ويلاحظ ارتباط الاستفهام بجملة الصفة (نتربص) وارتباطهما بالاستعارة التصريحية في قوله: (ريب المنون)، فقد أطلق الرّيب على الحوادث، والرَّيبُ: الشك، وشبهت الحوادث بـ(الريب) لأنها لا تدوم ولا تبقى على حال، قال الشاعر:

أمَنِ المنون وريبُها تتوجعُ
والدَّهرُ ليس بمنقدٍ من يجزعُ (٤٧).

والاستفهام الإنكاري يؤكده الخبر بـ(إنَّ) في قوله تعالى:(...فإني معكم من

المتربصين)، لتنزيل المخاطبين منزلة من ينكر أنه يتربص به كما يتربصون به ؛ لأنهم لغرورهم اقتصروا على أنهم يتربصون به ليروا هلاكه، فهذا من باب تنزيل غير المنكر منزلة المنكر، وقد جاء أسلوب الاستفهام منسجماً مع الجواب المنصف ليرضي شعور المتلقي "لأن تربص حلول حوادث الدهر بأحد الجانبين أو حلول المنية مشترك الالتزام لا يدري أحدنا ماذا يحل بالآخر"(٤٨)، وهو ما أمر به الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم عن مقالتهم هذه بأن يقول: (قل تربصوا فإني معكم من المتربصين).

- قال تعالى (أَمْ تَأْمرهم أحلامهم بهذا، أَمْ هم قَوْمٌ طَاغُون)(٤٩).

الأحلام: العقول والألباب، أي: عقولهم وألبابهم والمعنى: أتأمرهم أحلامهم بهذا التناقض في القول وهو قولهم كاهنٌ أو شاعرٌ مع قولهم مجنون (٥٠).

وقيل: أحلامهم أي: أذهانهم، لأن العقل لا يُعْطَي للكافر ولو كان له عقل لآمن، وإنما يعطى الكافر الذهن، فصار عليه حجة(٥١)، فالجملة فيها إضراب انتقالي دعا إليه ما في الاستفهام المقدر بـ(أَمْ) من معنى التعجيب من حالهم، إذ كيف يقولون ذلك الكلام مع أنهم لا يجهلون أن محمداً ليس بشاعر ولا كاهن ولا مجنون(٥٢)، وقد شهد بذلك زعماؤهم أمثال: الوليد بن المغيرة في قصته المعروفة، فالإنكار والتعويض هنا جاء على زعمهم ذلك الكلام مع أنهم يوصفون بأنهم أهل الأحلام والنهي. وقد عرّض بالقول المذكور في قوله:(فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون)، والمصرّح به في قوله: (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) باسم الإشارة (بهذا).

ومعنى إنكار أن تأمرهم أحلامهم بهذا أن الأحلام الراجحة لا تأمر بمثله، وفيه تعريض بأنهم أضاعوا أحلامهم حين قالوا ذلك لأن الأحلام لا تأمر بمثله، فهم كمن لا أحلام لهم وهذا تأويل من يرى أن الكافر لا عقل له (٥٣)، فالاستفهام يعمّق دلالة الإنكار من خلال تفاعله مع الأساليب الأخرى كدلالة التقديم والتأخير من خلال تقدم الفعل والمفعول به في قوله: (تأمرهم) على الفاعل (أحلامهم)، ودلالة الاستعارة المكنية أو المجاز العقلي في إسناد الأمر إلى الأحلام التي أزرى بها الخطاب القرآني حيث لم تثمر عقول هؤلاء من معرفة الحق والباطل، وقد كان العرب يتفاخرون بعقولهم الراجحة، مما زاد في انتباه المتلقي وأرضي شعوره من خلال هذه الحجة الدامغة.

أما قوله تعالى: (أم هم قومٌ طاغون): إضراب انتقالي متصلٌ بالذي قبله من خلال الاستفهام الإنكاري المقدر بـ(أم)، وضمير الجمع الغائب (هم)، فانتقل الاستفهام بالإضراب عن اتصاف الكفار بالطغيان، وهنا الاستفهام إنكاري للتشكيك حتى يكون باعثاً على التأمل في حالهم فيؤمن بأنهم طاغون، وقد يكون إما للتقرير لكل سامع إذ يجدهم طاغين (٥٤).

(طاغون): من الطغيان وهو مجاوزة الحد في العصيان (٥٥)، فهم قومٌ طاغون يغترون ويقولون مالا دليل عليه سمعاً ولا مقتضى عقلاً، وأما كونهم طاغين فهو حق، فخصّ الله عزَّ وجل بالذكر ما قالوا به وقال الله به، فهم قالوا: نحن نتبع العقل(٥٦). والله تعالى قال: (هم قوم طاغون) أي: تجاوزوا الحد في الطغيان، قال تعالى في سورة الحاقّة: (إنَّا لما طغى الماءُ حملناكم في الجارية) أي تجاوز الحد، فهم قومٌ ضلال معاندون، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوا فيك.

وفيه ربط بين الاستفهام الإنكاري ودلالة معنى الإضراب في بل، أي (بل هم قومٌ طاغون)، فالدلالة الرابطة بينهما هو مجاوزة الحد في الطغيان وهو تأكيد للاستفهام الإنكاري، وهذه الدلالة بدورها عمّقت فكرة التحدي والتهكم والاستخفاف بعقول هؤلاء الجهلة المنكرين، " فقد طغوا على ربهم، فتجاوزوا ما أذن لهم، وأمرهم به من الإيمان إلى الكفر به " (٥٧).

- قال تعالى:(أم يقولون تقوّلهُ بل لا يؤمنون)(٥٨).

(أم يقولون تقوّلهُ....) أي: افتعله وافتراه يعني القرآن، والتقول: تكلف القول، وإنما يستعمل في الكذب في غالب الأمر(٥٩)، فالاستفهام المقدر بـ(أم) لإنكار قولهم، فالإضراب انتقالي متصل بقوله: (أم يقولون شاعر....)، وهذا حكاية أن يكون القرآن وحياً من الله، وليس الأمر كما زعموا، بل لا يؤمنون بالقرآن استكباراً، وهذا حكاية لإنكارهم أن يكون القرآن وحياً من عند الله، فزعموا أنه تقوّله النبي صلى الله عليه وسلم على الله، وهم قد أكثروا من الطعن، ولذلك جيء في حكايته عنهم بصيغة (يقولون) المفيدة للتجدد (٦٠).

ولمّا كان ذلك ألزمهم الله الحجة في قوله:(فليأت بحديث مثله إن كانوا صادقين) أي: في نظمه وحسن بيانه إن كانوا صادقين في أن محمداً صلى الله

عليه وسلم تقوّله من تلقاء نفسه، فإظهار التحدي وعجزهم في ذلك دليل على أنهم كاذبون(٦١). وقد ناسب الاستفهام الإنكاري ما في النص من مجاز، فالحديث قد يكون قد أطلق على الكلام مجازاً بعلاقة الإطلاق أي: فليأتوا بكلام مثله، وهذا التناسب يحيلنا- بدوره- إلى أن المؤمن الصادق الإيمان يعلم علم اليقين أن هذا الكلام من عند الله ويعجز عن إتيانه جميع الأنام، كبيرهم وصغيرهم، انسهم وجنّهم، وهو مصداقاً لقوله تعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)(٦٢).

والمتأمل في دلالة الاستفهام الإنكاري يلمس النبرة الحادة من التحدي في قوله تعالى(: أم يقولون تقوّله)، لأنه " لما كانت مقالتهم هذه طعناً في القرآن وهو المعجزة القائمة على صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وكانت دعواهم أنه تقوَّلَ على الله من تلقاء نفسه... تصدى القرآن لبيان إبطالها بأنْ تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن فألزمهم الحجة (فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين)"، ووجه الملازمة أن محمداً صلى الله عليه وسلم أحد العرب وهو ينطق بلسانهم، فالمساواة بينه وبينهم في المقدرة على نظم الكلام ثابتة، فلو كان القرآن قد قاله محمد صلى الله عليه وسلم لكان بعض خاصة العرب البلغاء قادر على تأليف مثله، فلما تحداهم الله بأن يأتوا بمثل هذا القرآن وفيهم بلغاؤهم وشعراؤهم وكلمتهم وكلهم واحد في الكفر كان عجزهم عن الإتيان بمثل هذا القرآن، ولذلك قال تعالى في سورة هود (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله)(٦٣).

- قال تعالى (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون)(٦٤).

(أم خلقوا من غير شيء): أوجدوا من غير موجد، أي: من عدم، وهذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فالله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا.

وفي تفسير آخر أي: إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والأرض قالوا الله، وهم شاكون فيما يقولون لا يوقنون (٦٥)، فحرف (مَنْ) في قوله تعالى:(من غير شيء).يجوز أن يكون للابتداء، فيكون معنى الاستفهام المقدر بعد (أم) تقريرياً، " والمعنى: أيقرُّون أنهم خلقوا بعد أن كانوا عدماً، فكما خلقوا من عدم في نشأتهم الأولى ينشئون من عدم في النشأة الآخرة، وذلك إثبات لإمكان البعث..."(٦٦)، ويجوز أن يكون للتعليل، فيكون معنى الاستفهام المقدر بعد (أم) للإنكار، " ويكون اسم (شيء) صادقاً على ما يصلح لمعنى التعليل المستفاد من حرف (من) التعليلية، والمعنى: إنكار أن يكون خلقهم بغير حكمة، وهذا إثبات أن البعث واقع لأجل الجزاء على الأعمال بأن الجزاء مقتضى الحكمة التي لا يخلو عنها فعل أحكم الحكماء.."(٦٧).

وفي الآية إضراب انتقالي يدل عليه الاستفهام الإنكاري المقدر بـ(أم) من إبطال ضرب آخر شبهتهم في إنكار البعث، فالآية دليل على أن ما خلقه الله من بدء الخلق أعظم من إعادة خلق الإنسان، ففي السورة (تماسك نصي) بين هذه الآية وبين قوله في بداية السورة (إن عذاب ربك لواقع)، فإثبات وقوع البعث يؤكده وقوع العذاب للكافرين المنكرين له.

ولعل العدول عن صوغ الكلام بصيغة النفي الغالبة في الاستفهام التقريري بأن يقال: أما خلقوا من غير شيء، والعدول عن تعيين ما أضيف إليه (غير) إلى الإتيان بلفظ مبهم وهو لفظ (شيء) روعي فيه الصلاحية لاحتمال المعنيين...(٦٨)، وهو ما يعطي بعد أن الاستفهام الإنكاري والتقريري.

وقوله:(أم هم الخالقون) إضراب انتقالي أيضاً، والاستفهام المقدر بعد (أم) إنكاري، أي إنكار أن يكونوا هم الخالقون، وصيغت الجملة في صيغة الحصر الذي طريقه تعريف الجُزأيّن إضافياً للرد عليهم بتنزيلهم منزلة من يزعم أنهم الخالقون لا الله، لأنهم عدُّوا من المحال ما هو خارج عن قدرتهم، فجعلوه خارجاً عن قدرة الله، فالتقدير: أم هم الخالقون لا نحن. والمعنى: نحن الخالقون لا هُمْ(٦٩). فالإنكار مرتب على تنزيلهم منزلة من يزعمون أنهم خالدون.

- قال تعالى:(أم خَلَقُوا السموات والأرض بل لا يوقنون)(٧٠).

(أم خلقوا السموات والأرض)، أي: إذا سُئِلوا من خلقكم وخلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، وهم شاكّون فيما يقولون لا يوقنون، فالاستفهام المقدر بعد (أم) إنكاري أي إنكار أنهم خلقوا السموات والأرض، فدلالة الاستفهام كونها تنفي قدرة هؤلاء على الخلق وعجزهم فإنها تؤكد قوة التحدي والإعجاز لصاحب القدرة والجبروت وهو دليل على أن هؤلاء الخلق لا يوقنون، وهو ما أكده الخطاب

القرآني في قوله تعالى (بل لا يوقنون).

وجملة (أم خلقوا السموات والأرض) بدل من جملة (أم هم الخالقون) ،وهو إما بدل مفصّل من مجمل إن كان مفعول (الخالقون) المحذوف مراداً به العموم وكان المراد بالسماء والأرض ذاتيهما مع من فيهما، أو بدل بعض من كل وكان المراد ذاتي السموات والأرض، فيكون تخصيص السموات والأرض بالذكر لعظم خلقهما(٧١)، وقد تفاعلت دلالة الاستفهام الإنكاري مع عنصر الكناية في قوله: (أم خلقوا السموات والأرض...)، كناية عن إثبات أن الله خالق السموات والأرض، والمعنى: أن الله الذي خلق السموات والأرض لا يعجزه إعادة الأجساد بعد الموت والفناء، وهذا معنى قوله: (أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادرٌ على أن يخلق مثلهم)، أي: أن يخلق أمثال أجسادهم بعد انعدامهم(٧٢).

وفي قوله تعالى: (بل لا يوقنون) إضراب إبطال على مضمون الجملتين اللتين قبله، أي: لم يخلقوا من غير شيء ولا خلقوا السموات والأرض، وهو أيضاً تأكيد للاستفهام الإنكاري في قوله(أم خلقوا السموات والأرض)، فإنكارهم للبعث بعد الموت ناشئ من عدم إيقانهم بذلك، فالدلائل كلها تدل على إمكانية البعث، فكان إنكارهم إياه ناتج عن مكابرة وإصرار على الكفر والإنكار(٧٣).

- قال تعالى (أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون)(٧٤).

(أم عندهم خزائن ربك)، الخزائن: الرزق أي: هل عندهم الرزق حتى يرزقوا النبوءة لمن شاءوا، أو عندهم خزائن علمه حتى يختاروا لها اختياره حكمة ومصلحة (٧٥).

والخزائن جمع خزينة وهي البيت، أو الصندوق الذي تخزن فيه الأقوات أو المال وما هو نفيس عند خازنه، والمعنى: أيملكون خزائن ربك؟، فالاستفهام المقدر بعد (أم) إنكاري، فانتقل بهذا الأسلوب المجازي إلى مخاطبة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم "وكان الأصل الذي ركزوا عليه هو جحودهم توهُم أن الله لو أرسل رسولاً من البشر لكان الأحق بالرسالة رجلاً عظيماً من عظماء قومهم... والمعنى: إبطال أن يكون لهم تصرف في شؤون الربوبية فيجعلوا الأمور على مشيئتهم كالمالك في ملكه... فالاستفهام إنكاري بتنزيلهم في إبطال عمن لا يرضونه منزلة من عندهم خزائن الله يخلعون الخلع منها على من يشاءون ويمنعون من يشاءون"(٧٦)، فانخلعت عنهم صفة القدرة والمشيئة والسيطرة.

وقد ساعد عنصر التقديم والتأخير في زيادة تأكيد المعنى وتقويته، فكلمة (عند) تستعمل كثيراً في معنى الملك والاختصاص كقوله تعالى:(وعنده مفاتيح الغيب)، غير أنها هنا استعملت في غرض النفي والإنكار وقد ساهم عنصر الاستعارة في تعميق المعنى وإثارة شعور المتلقي ولفت انتباهه.

فـ (خزائن) لها عدة دلالات ومعاني، فيراد منها: المطر والزرق، ويراد منها: مفاتيح الرحمة، ويراد منها النبوءة " أي: فبأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة يضعونها حيث شاءوا. وضرب المثل بالخزائن ؛لأن الخزائن بيت يهيأ لجمع أنواع مختلفة من الذخائر، ومقدورات الرب كالخزائن التي فيها من كل الأجناس فلا نهاية لها "(٧٧).

(- أم هم المسيطرون): أي هم الحفظة: مأخوذ من تسطير الكتاب الذي يحفظ ما كتب فيه، فصار المسيطر هاهنا حافظاً ما كتبه الله في اللوح المحفوظ(٧٨).

وقرئ بـ(المصيطرون) بالصاد وهم المسلطون الجبارون والمبطلون(٧٩)، وفي الآية استفهام إنكاري مقدر بعد (أم) معطوف على ما قبله، ودلالة الإنكار هو كيف يكون للكفار تصرّف في عطاء الله تعالى ولو دون تصرف المالك؟، مثل تصرف الوكيل والخازن وهو ما عبّر عنه بـ(المسيطرون)(٨٠)، وقد تفاعل أسلوب الاستفهام مع غيره من العناصر التي تصب في بوتقة التحدي والإعجاز لهؤلاء المنكرين الجاحدين.

- قال تعالى: (أم لهم سُلَّمٌ يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين) (٨١).

(أم لهم سُلَّمٌ): منسوب إلى السماء يستمعون صاعدين فيه إلى كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من تقدم هلاكهم وظفرهم في العاقبة دونه كما يزعمون(٨٢)، لذلك جاء الاستفهام الإنكاري المقدر بـ(أم) الذي يراد منه النفي القاطع، ويراد منه أيضاً التهكم، " حيث سلك في نفي علمهم بالغيب طريق التهكم بهم بإنكار أن يكون لهم سُلَّمٌ يرتقون به إلى السماء ليستمعوا ما يجري في العالم العلوي من أمر تتلقاه الملائكة أو أهل الملأ الأعلى بعضهم مع بعض، فيسترقوا بعض العلم مما هو محجوب عن الناس...، فلما نفى أن يكون لهم تصرف قوي أو ضعيف في مواهب الله تعالى على

عباده، أعقبه بنفي أن يكون اطلاعٌ على ما قدره الله لعباده اطلاعاً يخوّلهم إنكار أن يرسل الله بشراً أو يوحي إليه وذلك لإبطال قوله تقوّله "(٨٣).

وهذا النفي أكّدهُ الاستفهام الإنكاري والجملة الاستفهامية بما تحمل من دلالات غنية متصلة بالسياق الذي قبلها، بالإضافة إلى بنية التقديم والتأخير التي تجلت في تقديم الخبر لهم على المبتدأ (سُلّم) للاهتمام لأنه مناط الإنكار.

وتتآزر دلالة الاستفهام الإنكاري التوبيخي مع نبرة التحدي والبراهين القاطعة فـ(السُّلّم) للارتقاء، وهذا يناسب قوله تعالى في سورة ص: (أم لهم ملك السموات والأرض فليرتقوا في الأسباب)(٨٤)، وهو تعبير مجازي المراد منه االتقريع والتوبيخ، أي إن كان لهم شيء من ذلك فليصعدوا في المراقي التي توصلهم إلى السماء ويستمعوا ويتدبروا شؤون الكون، وهو غاية التهكم والإعجاز، فالتعبير المجازي بـ(السُّلّم) يثير الذهن ويجعل السامع يستعمل العقل، فاستحالة وصول هؤلاء الجاحدين الناكرين لكلام الله ورسوله إلى السماء دليل عجزهم وضعفهم، ودلالة أيضاً على عظمة الخالق وعلوه جلت قدرته.

والفاء في قوله تعالى: (فليأت مستمعهم بسلطان مبين) لتفريع هذا الأمر التعجيزي على النفي المستفاد من استفهام الإنكار، فالمعنى: فما يأتي مستمع بحجة تدل على صدق دعواهم، ولام الأمر مستعمل في إرادة التعجيز بقرينة انتفاء أصل الاستماع بطريق استفهام الإنكار... وهذا تحدٍ لهم فلذلك اكتفى بأن يأتي بعضهم بحجة دون تكليف جميعهم بذلك على نحو قوله تعالى: (فأتوا بسورة مثله)، أي: فليأت من يتعهد منهم بالاستماع بحجة، وهذا بمنزلة التذييل للكلام على نحو ما تقدم في قوله تعالى: (قل تربصوا فإني معكم من المتربصين)، وقوله تعالى: (فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) (٨٥).

. قال تعالى: (أم له البنات ولكم البنون) (٨٦).

والمعنى: أتضيفون إلى الله البنات مع أنفتكم منهن ومن كان هذا عقله فلا يستبعد منه إنكار البعث(٨٧)، فالآية تقع جملة استئنافية مثل: (أم عندهم خزائن ربك...)، والاستفهام المقدر بـ(أم) إنكارياً يبطل وينكر ادعائهم أن يكون لله البنات، ولمّا جرى نفي أن تكون مطالعة الغيب من الملأ الأعلى إبطالا لمقالاتهم في شؤون الربوبية أعقب ذلك بإبطال نسبتهم لله البنات استقصاء لإبطال أوهامهم في المغيّبات من العالم العلوي، فهذه الجملة معترضة بين جملة (أم لهم سُلّمٌ) وجملة (أم تسألهم أجراً) (٨٨).

فالاستفهام المقدر بـ(أم) المنقطعة في قوله تعالى: (أم له البنات ولكم البنون)إنكاري، ينكر بشدة على هؤلاء، لأن نفوسهم المريضة جعلت منهم يكرهون البنات لجهلهم، فينسبونها لله وينسبون لأنفسهم الذكور، فجاء الخطاب القرآني منكراً لهذه المعادلة الخاطئة، " ودليل الإنكار في الأمر استحالة الولد على الله تعالى ولكن لما كانت عقول أكثر المخاطبين بهذا الرد غير مستعدة لإدراك دليل الاستحالة، وكان اعتقادهم البنات لله منكراً..."(٨٩).

كما يحيلنا الاستفهام الإنكاري إلى دلالة أخرى وهي المبالغة في تشنيع قولهم أن لله البنات، فجملة: (ولكم البنون) في موضع الحال من ضمير الغائب،أي: كيف يكون لله البنات في حال أن لكم بنين وهم يعلمون أن صنف الذكور أشرف من صنف الإناث على الجملة كما أشار في قوله:(ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ضيزى)(٩٠).

ويلاحظ المتلقي عمق المعنى وتأكيده من خلال تقنية التقديم والتأخير في الجملة (أم له البنات ولكم البنون)، فقدَّم (لكم) على (البنون) لإفادة الاختصاص أي لكم البنون دونه فهم له بنون وبنات، وزعموا أن الله ليس له إلا البنات، كما قدّم المجرور له الخبر على المبتدأ (البنات) للاهتمام باسم الجلالة مما أثار ذهن المتلقي ولفت انتباهه وزاد المعنى قيمة جمالية.

- قال تعالى: (أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون)(٩١).

الخطاب للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، و" المغرم أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه أي: لزمهم مغرم ثقيل فدحهم فزهدهم ذلك في إتباعك "(٩٢)، وقد جاء الخطاب بصيغة الاستفهام الإنكاري المقدر بـ(أم) والمراد منه النفي ؛ أي: لست نسألهم أجراً على إبلاغك إياهم الرسالة (٩٣)، فالاستفهام هنا مستعمل في التهكم بهم بتنزيلهم منزلة من يتوجس خيفة من أن يسألهم الرسول صلى الله عليه وسلم أجراً على إرشادهم (٩٤).

وفي هذه الآية والآيات السابقة (أم يقولون تقوّله) وقوله تعالى (أم عندهم خزائن ربك) تماسك نصي وارتباط في المعنى، فالجملة الاستفهامية المقدرة

تتكر وتبطل الأسباب التي تحملهم على زعم انتفاء النبوءة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ولأجل ذلك جاء هذا الكلام على أسلوب الكلام الذي اتصل هو به، وهو أسلوب خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال هنا (أم تسألهم أجراً)وقال هنالك (أم عندهم خزائن ربك) (٩٥).

(فهم من مغرم مثقلون) الفاء حرف عطف على ما سبق، وفيه تفريع لما فيه من بيان الملازمة بين سؤال الأجر وبين تجهم من يسأل والتحرج منه ؛ لأن مجرد السؤال محرج للمسئول لأنه بين الإعطاء فهو ثقيل وبين الرد وهو صعب (٩٦).

وقد لفتَ انتباه المتلقي ذلك التفاعل الدلالي في أسلوب الاستفهام المقدر بعد (أم) فهو من ناحية مستعمل في التهكم، أي تنزيل هؤلاء الجاحدين منزلة التجهم من سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم أجراً على نصحهم وإرشادهم، وفي الوقت نفسه أن هذا التهكم استعارة مبنية على التشبيه، والمقصود ما في التهكم من معنى أن ما نشأ عن التهكم أمر لا ينبغي أن يخطر بالبال.

ومن جانب آخر نلاحظ أيضاً ذلك التفاعل الدلالي بين أسلوب الاستفهام الإنكاري وبين الاستعارة في قوله تعالى: (فهم من مغرم مثقلون)، فالاستعارة هنا لمن يطالب بما يعسر عليه أداؤه، حيث شبه طلبه أداء ما يعسر عليه بحمل الشيء الثقيل على من لا يسهل عليه حمله... والمعنى أنك يا محمد ما كلفتهم شيئاً يعطونه إياك فيكون سبباً لإعراضهم عنك تخلصاً من أداء ما يطلب منهم، أي انتفى عذر إعراضهم عن دعوتك، أي: ما سألتهم أجراً فيثقل غُرّمه عليه.

- قال تعالى: (أم عندهم الغيب فهم يكتبون) (٩٧).

"أي: يكتبون للناس ما أرادوه من علم الغيوب، وقيل أي: ما عندهم علم ما غاب عن الناس حتى علموا أن ما أخبرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من أمر القيامة والجنة والنار باطل" (٩٨).

فالجملة الاستفهامية المقدرة بـ (أم) إضراب أي: بل عندهم الغيب فهم يكتبون ما يجدونه فيه ويرونه للناس، كما جاءت في سياق النفي أي: ما عندهم الغيب حتى يكتبوه.

كما جاءت أيضاً في سياق الإنكار الشديد، فبعد أن ردّ عليهم إنكارهم الإسلام بأنهم كالذين سألهم النبي صلى الله عليه وسلم أجراً على تبليغها أعقبه برد آخر بأنهم كالذين اطلعوا عليه فوجدوه مخالفاً لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم (٩٩).

والكتابة في قوله تعالى: (فهم يكتبون) يجوز أن تكون مستعارة للجزم الذي لا يقبل التخلف كقوله تعالى: (كتب ربكم على نفسه الرحمة) ؛ لأن شأن الشيء الذي يراد تحقيقه والدوام عليه أن يكتب ويسجل... فيكون الخبر في قوله (فهم يكتبون) مستعملاً في معناه من إفادة النسبة الخبرية(٨٧) ؛ لأن معنى يكتبون: يحكمون والكتاب: الحكم، فمنه قوله تعالى: (كتب ربكم على نفسه الرحمة)، أي: حكم، وقوله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده لأحكمنّ بينكم بكتاب الله) (١٠٠)، أي: بحكم الله.

وقد تآزرت دلالة الاستفهام الإنكاري المقدر بـ(أم) مع دلالة التقديم والتأخير في قوله تعالى: (أم عندهم الغيب فهم يكتبون)، فقدَّم الظرف المعلق بمحذوف (عند) وهو خبر مقدم لدلالته على الاختصاص والاستئثار أي: أنهم استأثروا بعلم الغيب فعلموا ما لم يعلمه غيرهم، والمعنى: أنهم لا قبل لهم بإنكار ما جحدوه ولا بإثبات ما أثبتوه، مما زاد في تعميق المعنى وأكسبه قيمة جمالية شَدّت انتباه المتلقي وأرضت شعوره.

- قال تعالى: (أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون) (١٠١).

(أم يريدون كيداً) أي مكراً برسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الندوة(١٠٢)، فهو انتقال من إنكار أقوالهم وإبطال مزاعمهم إلى إبطال نواياهم من التربص به حتى يموت،وفي ذلك كشف لنواياهم ومكرهم وتنبيه المؤمنين من شرورهم(١٠٣).

والاستفهام المقدر بـ(أم) في الآية إنكاري تكذيبي حيث يفهم من السياق أن ما يكيدونه للرسول صلى الله عليه وسلم هو حقيقته كالسراب، فهو مصداق لقوله تعالى: (والله يعصمك من الناس) وأن كيدهم سيعود عليهم بالضرر، قال تعالى:(ولا يحيق المكر السيئُ إلا بأهله).

(فالذين كفروا هم المكيدون): إشارة إليهم، فالذين يمكرون ويكيدون يعود عليهم وبال كيدهم، في إشارة إلى موقعة بدر الكبرى،وهو تهديد صريح لهم، وهي أيضاً إشارة إلى كل من كفر بالله(١٠٤).

وعدل عن الإضمار إلى الإظهار وهو أسلوب آخر من أساليب الخطاب القرآني زيادة في إظهار المعنى وتتميماً للفائدة في قوله تعالى:(فالذين كفروا هم المكيدون)، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (فهم

المكيدون) لما تؤذن به الصلة من وجه حلول الكيد بهم لأنهم كفروا بالله، فالله يدافع عن رسوله صلى الله عليه وسلم وعن المؤمنين وعن دينه(١٠٥).

وكلمة (كيد) في الآية تلخص سبب جحودهم وإنكارهم، والكيد لا يأتي إلا من ظلم النفس بالشرك بالله(١٠٦).

- قال تعالى: (أم لهم إلهٌ غير الله سبحان الله عمَّا يشركون)(١٠٧).

أي: إله غير الله يعينهم ويحرسهم من عذابه عز وجل، وهو يفيد فائدة قوله تعالى: (أم له البنات ولكم البنون)(١٠٨).

وفي الآية أشد أنواع التقريع والإنكار، وهو الإشراك بالله دّل عليه الاستفهام المقدر بـ(أم)، وهذا آخر سهم في كتابة الردّ عليهم وأشد رمي لشبح كفرهم وهو شبح الإشراك وهو أجمع ضلال تتهاوى تحته الضلالات وهو إشراكهم مع الله آلهة أخرى(١٠٩).

وقوله تعالى: (سبحان الله عما يشركون) فقد تكررت هذه الجملة في غير ما آية، وقد ذيلت هذه الصفات بتنزيه الله تعالى عن أن يكون له شركاء بأن أشرك به المشركون، فضمير (يشركون) عائد إلى معلوم من المقام وهم المشركون الذين لم يزل القرآن يقرعهم بالمواعظ.

وإلى جانب عنصر التكرار نجد عنصر التقديم والتأخير في الآية حيث عمل على تقوية المعنى وتأكيده، فجاء التقريع والإنكار شديداً دلَّ عليه قوله: (سبحان الله)، فتقديم الخبر:(لهم) وتأخير المبتدأ:(إله) جاء لتأكيد معنى التقريع والإنكار لهؤلاء الكفرة الجاحدين ودلالة النفي القاطع لإشراكهم مع الله إله آخر.

كما يلاحظ في هذه الآية والتي قبلها من الآيات المتوالية بالاستفهام المقدر بـ(أم) ترابط دلالي ساهم في تشكيل بنية دلالية قوية تمثلت في التحدي والإعجاز لهؤلاء المشركين المكذبين وإثبات وقوع البعث والحساب وعجز البشر جميعاً عن الإتيان بمثل كلام الله المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم وإنكار وإبطال ما يدعون إليه هؤلاء المشركين.

ومن الآية الثالثة والأربعون وهي آخر آيات سورة الطور التي تحتوي على أسلوب الاستفهام نصل إلى نهاية بحثنا هذا، ومن خلال التحليل والاستقراء لهذا العنصر الإنشائي الطلبي في الآيات السابقة نستنتج ما يلي:

- إن الاستفهام في الآيات السابقة أفاد معانٍ بلاغية كثيرة، كالنفي والتقرير والتهديد والتعجب والإنكار التوبيخي التكذيبي، ومن المعلوم أن الاستفهام عند إفادته هذه المعاني يظل باقياً فيه معنى التنبيه وإثارة ذهن المخاطب ولفته إلى تلك المعاني حتى يتأمل ويتدبر أنه لا جواب لهذا الاستفهام إلا بالإذعان للمعنى الذي يلفته إليه.
- كان لأسلوب الاستفهام الإنكاري سمة أسلوبية بالغة الأثر في معرفة خواص تركيب الكلام، وكشف خبايا النفس البشرية والنفوذ إلى أعماقها، وتصوير شخصيات المشهد في صورة ماثلة تبين ما عليها من تعجب أو تهكم أو اضطراب أو توتر أو إيمان أو نفاق أو غير ذلك.
- يُعدُّ أسلوب الاستفهام من الأساليب التي اعتمدها النص القرآني للإيحاء والتأثير بدلاً من المباشرة والتصريح، فهو ينقل المتلقي من المستوى المباشر للخطاب القرآني إلي المعاني والدلالات الكامنة وراء النص. وتقوم أيضاً باستكمال ما تعجز الكلمات المباشرة عن بيانه وتجليته، فالتعبير بأسلوب الاستفهام يعطي غنى وخصوبة وأصالة للنص القرآني لما له من فاعلية في توجيه الأفكار وتعميق الرؤية الفنية وإثراء النص وتخصيبه.
- استطاع أسلوب الاستفهام أن يخاطب العقل والوجدان في آن معاً، وكان له القدرة على حمل المتلقي على المشاركة في تفعيل الموقف القرآني، وما يبثه من معانٍ وآداب رفيعة، فنشّط الخيال وحرّك الأذهان والعقول.
- كذلك الحال مع عنصر التقديم والتأخير في الآيات حيث جاء في سياق معرض ردّ دعاوي الكافرين وإبطالها: (أم عندهم خزائن ربك، أم لهم سُلّمٌ يستمعون فيه، أم له البنات ولكم البنون، أم له عندهم الغيب فهم يكتبون، أم لهم إله غير الله). وهذه التراكيب الحاسمة المصدرة بـ(أم) تُعْنى بتحريك المعنى بحيث يضرب المرء عما قبله ويستفهم عما بعده، وتعرض النفي في صورة استفهامية تدفع إلى التأمل والتدبر والتفكير في عجز هؤلاء المكذبين، فالوصول إلى هذه الدلالة ينبع من حيوية الاستفهام في النص بما يجعل النفي يتراءى على نحو غير مباشر ثم يتخذ بُعْداً مطلقاً من خلال التقديم والتأخير على النحو الذي تم توضيحه، وهو ما يحيل – في النهاية – إلى مفارقة هائلة بين هذا العجز الذي يتسم به هؤلاء المكذبون من ناحية

وتبجحهم في الاجتراء على الطعن في مبادئ التوحيد والرسالة من ناحية أخري وهو ما أثار دهشة المتلقي ولفت انتباهه.

- من الخصائص الأسلوبية التي جاءت متضمنة معنى الاستفهام والتي أسهمت في تعميق دلالاته القيم الإيقاعية النابعة من مراعاة الفواصل، فهذه الخاصية تولد جرساً موسيقياً عذباً يسري في النفس سريان الروح في الجسد.

الحواشي والتعليقات:

(١)-عبد السلام محمد هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي بالقاهرة الطبعة الثالثة، ١٩٨٧، ص١٣.

(٢)- المرجع السابق ص ١٨.

(٣)- ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور) ،لسان العرب،طبقة دار صادر بيروت /ط١/٢٠٠٠م. مادة(فَهِمَ) ج١٢/ص٤٥٩.

(٤)-د.محمد عبد المطلب، البلاغة العربية قراءة أخرى، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، الطبعة الأولى ١٩٩٧م ص٢٨٤.

(٥)- عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٩، بيروت لبنان. وينظر أيضاً: بكري أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد/علم المعاني) دار العلم للملايين بيروت لبنان/ طبعة ١٩٧٩، ص٨٥،وما بعدها.

(٦)- ابن فارس،(أبو الحسن أحمد فارس بن زكريا) ، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها. تحقيق السيد أحمد صقر، الهيئة العامة لقصور الثقافة/ القاهرة/ يوليو٢٠٠٣، ص٢٩٢.

(٧)- المصدر السابق ص١٥١،١٥٠.

(٨)- عبد السلام محمد هارون، الأساليب الإنشائية ص ١٠٧.

(٩)- بكري شيخ أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم المعاني) ، ص ٩٥.

(١٠)- عبد السلام هارون، الأساليب الإنشائية ص ١٢١.

(١١)- سورة طه الآية ٩٩.

(١٢)- عبد السلام هارون، الأساليب الإنشائية ص ١٢٤.

(١٣)- ابن فارس، الصاحبي ص١٧٣.

(١٤)- ينظر الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة ١٩٨٤، مكتبة دار التراث، القاهرة، المجلد الثاني ص٣٢٧- ٣٥٠.

(١٥)- الجرجاني: أبوبكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، دلائل الإعجاز، قرأه وعليه: محمود محمد شاكر، بدون تاريخ طبعة.

(١٦)- عبد السلام محمد هارون، الأساليب الإنشائية ص ١٠٧.

(١٧)- سورة الإسراء الآية ٨٨.

(١٨) - فهد بن عبدالرحمن سليمان، خصائص القرآن الكريم، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة التاسعة، ١٩٩٧، ص ٢٠.

(١٩) - بن عاشور: الشيخ محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، المجلد١٣، ص٣٣.

(٢٠) - سورة الطور الآية (١٥).

(٢١) - سورة الطور الآية (٣٠).

(٢٢) - سورة الطور الآية (٣٢).

(٢٣) - سورة الطور الآية(٣٣).

(٢٤) - سورة الطور الآية(٣٥).

(٢٥) - سورة الطور الآية (٣٦).

(٢٦) - سورة الطور الآية(٣٧).

(٢٧) - سورة الطور الآية(٣٨).

(٢٨)- سورة الطور الآية (٣٩).

(٢٩)- سورة الطور الآية (٤٠).

(٣٠)- سورة الطور الآية (٤١).

(٣١)- سورة الطور الآية (٤٢).

(٣٢)- سورة الطور الآية (٤٣).

(٣٣)- محمد عبد الرحيم عدس، الواضح في قواعد النحو والصرف، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع عمان الأردن، طبعة: ١٩٩١م. ص١٨٩-١٩٢.

(٣٤)- المرجع السابق ص ١٩٠.

(٣٥) - راجع تفصيل موضع(أَمْ) في كتاب سيبويه، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة،، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨،ج ٣/ ص ١٦٩.

(٣٦)- سورة الشعراء الآية ١٣٦.

(٣٧)- كتاب سيبويه، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، ج ٣ ص١٦٩.

(٣٨)- سورة الطور الآية (٣٦).

(٣٩)- سورة الطور الآية (١٥).

(٤٠)- محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مجلد١٣،الجزء٢٧،ص٤٣.

(٤١)- المصدر السابق ص ٤٤.

(٤٢)- المصدر السابق ص ٦٠.

(٤٣)- المصدر السابق ص٦٦.

(٤٤)- سورة الطور الآية (٣٠).

(٤٥)- بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ص٦٠.

(٤٦)- المصدر السابق ص ٦١، ٦٠.

(٤٧)- البيت للشاعر أبي ذؤيب الهذلي خويلد بن خالد بن محرث شاعر مخضرم، قيل إنه مات بأرض الروم ودفن هناك، ينظر ديوان الهذليين، تحقيق: أحمد الدين- محمود أبو الوفا، دار الكتب المصرية، ١٩٦٥، المجلد الأول ص١.

(٤٨)- ينظر أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل، تحقيق خليل مأمون، دار المعرفة بيروت لبنان، الطبعة الثالثة،٢٠٠٩،ص ١٠٥٧.

(٤٩) - سورة الطور الآية(٣٢).

(٥٠) - ينظر أبو عبدالله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم طفيش، دار الكتب المصرية القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٤م، ج١٩/ ص٥٣٤.

(٥١)- بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ج٢٧، ص٦٣.

(٥٢) - المصدر السابق ج٢٧، ص٦٣.

(٥٣)- المصدر السابق ج٢٧، ص٦٤.

(٥٤)- المصدر السابق ج٢٧، ص ٦٥.

(٥٥) - المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية، مكتبة الشروق الدولية القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٨، مادة(طغى)، ص٥٧٩.

(٥٦)- إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير ابن كثير، دار طيبة،٢٠٠٢، ج٧، ص٤٣٧.

(٥٧)- محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، تحقيق محمود شاكر، دار المعارف بمصر،ج٢٢،ص٤٨١.

(٥٨)- سورة الطور الآية(٣٣).

(٥٩)- بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ص٦٥.

(٦٠)- المصدر السابق ص٦٥.

(٦١)- المصدر السابق ص٦٥.

(٦٢)- سورة الاسراء الآية(٨٨).

(٦٣)- سورة هود الآية ١٣.

(٦٤) – سورة الطور الآية (٣٥).

(٦٥)- الزمخشري، الكشاف، ص١٠٥٧.

(٦٦)- بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ص٦٧.

(٦٧)- المصدر السابق ص٦٨.

(٦٨)- المصدر السابق ص٦٧.

(٦٩)- المصدر السابق ص٦٩.

(٧٠)- سورة الطور الآية (٣٦).

(٧١)- الزمخشري، الكشاف، ص١٠٥٧.

(٧٢)- بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ص٦٩.

(٧٣)- المصدر السابق ص٦٩.

(٧٤)- سورة الطور الآية (٣٧).

(٧٥)- الزمخشري، الكشاف،ص١٠٥٧، ١٠٥٨.

(٧٦)- بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ص٧٠.

(٧٧)- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،ج١٩ ،ص٥٣٦.

(٧٨) - المصدر السابق ج١٩، ص٥٣٦.

(٧٩) - المصدر السابق ج١٩، ص٥٣٦.

(٨٠) - بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ص٧١.

(٨١) - سورة الطور الآية (٣٨).

(٨٢)- بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ص٧٢.

(٨٣) – المصدر السابق ص٧٢.

(٨٤) – سورة ص، الآية ١٠.

(٨٥)- بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ص٧٣.

(٨٦) - سورة الطور الآية (٣٩).

(٨٧)- القرطبي الجامع لأحكام القرآن، ج١٧ ،ص ٥٣٨.

(٨٨) - بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ص٧٤.

(٨٩) – المصدر السابق ص ٧٤.

(٩٠) - السابق ص ٧٤.

(٩١) - سورة الطور الآية (٤٠).

(٩٢) - بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ص٧٥.

(٩٣) - المصدر السابق ص ٧٥.

(٩٤) - السابق ص ٧٥.

(٩٥) - السابق ص ٧٥.

(٩٦) - السابق ص ٧٥.

(٩٧)- سورة الطور الآية (٤١).

(٩٨)- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج١٩/ص ٥٣٩.

(٩٩) - بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ص٧٦.

(١٠٠) - المصدر السابق ص ٧٦.

(١٠١) - سورة الطور الآية (٤٢).

(١٠٢) - الزمخشري، الكشاف ص١٠٥٨.

(١٠٣) - بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ص٧٧.

(١٠٤) - المصدر السابق ص٧٧.

(١٠٥) - المصدر السابق ص٧٧.

(١٠٦) - المصدر السابق ص ٧٨.

(١٠٧) سورة الطور الآية (٤٣).

(١٠٨) – ابن كثير: أبي الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م، ج ٧، ص٤٣٨.

(١٠٩) - بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ص ٧٨.

المصـــــادر والمراجـــع

- ابن كثير: أبي الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.
- ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور)،لسان العرب، طبعة دار صادر بيروت الطبعة الاولى/٢٠٠٠.
- ابن فارس،(أبو الحسن أحمد فارس بن زكريا)، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها. تحقيق السيد أحمد صقر، الهيئة العامة لقصور الثقافة/ القاهرة/ يوليو٢٠٠٣.
- بن عاشور: الشيخ محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، المجلد١٣.
- أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل، تحقيق خليل مأمون، دار المعرفة بيروت لبنان، الطبعة الثالثة،٢٠٠٩
- الجرجاني: أبوبكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، دلائل الإعجاز، قرأه وعليه: محمود محمد شاكر، بدون تاريخ طبعة.
- ينظر أبو عبدالله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم طفيش، دار الكتب المصرية القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٤م
- الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة ١٩٨٤، مكتبة دار التراث، القاهرة، المجلد الثاني.
- كتاب سيبويه، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثالثة،١٩٨٨.
- ديوان الهذليين، تحقيق: أحمد الدين- محمود أبو الوفا، دار الكتب المصرية، ١٩٦٥.

- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية، مكتبة الشروق الدولية القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٨.
- إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير ابن كثير، دار طيبة،٢٠٠٢.
- عبد السلام محمد هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي بالقاهرة الطبعة الثالثة ١٩٨٧.
- عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٩، بيروت لبنان. وينظر أيضاً: بكري أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد/علم المعاني) دار العلم للملايين بيروت لبنان/ ط/ ١٩٧٩.
- بكري أمين، البلاغة العربية في ثوبها الجديد/علم المعاني) دار العلم للملايين بيروت لبنان١٩٧٩.
- فهد بن عبدالرحمن سليمان، خصائص القرآن الكريم، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة التاسعة، ١٩٩٧.
- محمد عبدالرحيم عدس، الواضح في قواعد النحو والصرف،دار مجدلاوي للنشر والتوزيع عمان الأردن، ١٩٩١م.